حمل الثور جوزة السرطان ورعى الليث سنبل الميزان

ورمى عقرب بقوس لجدى نزح الدلو بركة الحيتان

فهى الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدى والدلو والحوت ، وهى منازل الكواكب السيارة السبعة وهى : المريخ وله الحمل والعقرب ، والزهرة : ولها الثور والميزان ، وعطارد : وله الجوزاء والسنبلة ، والقمر : وله السرطان ، والشمس : ولها الأسد ، والمشترى : وله القوس والحوت ، وزحل : وله الجدى والدلو ، وهى فى الأصل القصور العالية . فأطلقت عليها على طريق التشبيه ، والسراج : الشمس ، خلفة : أى يخلف أحدهما الآخر ويقوم مقامه فيما ينبغى أن يعمل فيه .

المعنى الجملى

بعد أن بسط سبحانه أدلة التوحيد وأرشد إلى ما فى الكون من باهر الآيات وعظيم المشاهدات التى تدل على بديع قدرته وجليل حكمته ـ أعاد الكرة مرة أخرى ، وبين شناعة أقوالهم وقبيح أفعالهم ، إذ هم مع كل ما يشاهدون لا يرعوون عن غيهم بل هم عن ذكر ربهم معرضون ، فلا يعظمون إلا الأحجار والأوثان وما لا نفع فيه إن عُبد ، وما لا ضر فيه إن تُرك ، إلى أنهم يظاهرون أولياء الشيطان ويناوئون أولياء الرحمن ، وإن تعجب لشىء فاعجب لأمرهم فقد بلغ من جهلهم أنهم يضارّون من جاء لنفعهم وهو الرسول الذى يبشرهم بالخير العميم إذا هم أطاعوا ربهم وينذرهم بالويل والثبور إذا هم عصوه ، ثم هو على ذلك لا يبتغى أجرا .

ثم أمر رسوله بألا يرهب وعيدهم ولا يخشى بأسهم ، بل يتوكل على ربه ويسبح بحمده وينزهه عما لا يليق به من صفات النقص كالشريك والولد ، وهو الخبير بأفعال عباده فيجازيهم بما يستحقون .

الإيضاح

(ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم) أى ويعبد هؤلاء المشركون من دون الله آلهة لا تنفعهم إذا هم عبدوها ، ولا تضرهم إن تركوا عبادتها ، فهم عبدوها لمجرد التشهى والهوى ، وتركوا عبادة من أنعم عليهم بهذه النعم التى لا كفاء لأدناها ، ومن ذلك ما ذكره قبل بقوله : « أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ » إلى آخر الآيات .

ثم ذكر لهم جُرْما آخر فقال :

(وكان الكافر على ربه ظهيرا) أى وكانوا مظاهرين الشيطان على معصية الرحمن ، وذلك دأبهم وديدنهم ، فهم يعاونون المشركين ويكونون أولياء لهم على رسوله وعلى المؤمنين بمساعدتهم على الفجور وارتكاب الآثام ، وخذلان المؤمنين إذا أرادوا منعها والتنفير منها كما قال : « وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ » .

وقد يكون المعنى — وكان الكافر على ربه هينا ذليلا لا قدر له ولا وزن له عنده من قول العرب : ظهرتَ به ، أى جعلته خلف ظهرك ولم تلتفت إليه ، ومنه قوله تعالى : « وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا » أى هينا ، وقول الفرزدق :

تميمَ بنَ قيس لا تكونن حاجتى بظهر فلا يعيا علىَّ جوابُها

قال ابن عباس نزلت الآية فى أبى الحكم بن هشام الذى سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا جهل بن هشام .

ثم بين عظيم حمقهم وغرورهم ممن جاء لجلب الخير لهم ودفع الأذى عنهم فقال :

(وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا) أى كيف تطلبون العون على الله ورسوله والله قد أرسل رسوله لنفعكم ، إذ قد بعثه ليبشركم على فعل الطاعات وينذركم على فعل المعاصى ، فتستحقوا الثواب وتبتعدوا عن العقاب .

وخلاصة ذلك — لاجهل أعظم من جهل من استفرغ جهده فى إيذاء من يرجو نفعه فى دينه ودنياه .

وفى هذا تسلية لرسوله حتى لايحزن على عدم إيمانهم .

ثم أمر رسوله أن يبين لهم أنه مع كونه يريد نفعهم لايبغى لنفسه نفعا فقال :

(قل ما أسألكم عليه من أجر) أى قل لمن أُرسلتَ إليهم : لا أسألكم على ما جئت به من عند ربى أجرا ، فتقولوا إنما يدعونا ليأخذ أموالنا ، ومن ثم لاتتبعه حتى لايكون له فى أموالنا مَطْمَعٌ .

(إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا) أى لكن من شاء منكم أن يتقرب إلى الله بالإنفاق فى الجهاد وغيره ويتخذ ذلك سبيلا إلى رحمته ونيل ثوابه فليفعل .

وخلاصة ذلك — لا أسألكم عليه أجرا لنفسى ، وأسألكم أن تطلبوا الأجر لأنفسكم باتخاذ السبيل إلى ربكم لنيل مثوبته ومغفرته .

وبعد أن بين له أن الكافرين متظاهرون على إيذائه — أمره بالتوكل عليه فى دفع المضار وجلب المنافع فقال :

(وتوكل على الحىّ الذى لايموت وسبح بحمده) أى وتوكل على ربك الدائم الباقى رب كل شىء ومليكه ، واجعله ملجأك وذخرك وفوض إليه أمرك واستسلم له واصبر على ما نابك فيه ، فإنه كافيك وناصرك ومُبْلغك ما تريد ، ونزهه عما يقوله هؤلاء المشركون من الصاحبة والولد فهو الواحد الأحد الذى لم يلد ولم يولد ، كما تنزهه عن الأنداد والشركاء من الأصنام والأوثان فهو لا كفؤ له ولا ند : « وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ » .

وقد علمت قبل أن التوكل اعتماد العبد على الله فى كل الأمور ، والأسبابُ وسائط أمرنا باتباعها من غير اعتماد عليها .

ونحو الآية قوله : « وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ » .

وفى قوله : (الحى) إيماء إلى أنه لاينبغى أن يتوكل على من لم يتصف بالحياة من صنم أو وثن ولا على من لا بقاء له ممن يموت ، لأنه إذا مات ضاع من توكل عليه .

وحكى عن بعض السلف أنه قرأ هذه الآية فقال : لاينبغى لذى لب أن يثق بعدها بمخلوق .

ثم أنذرهم وحذرهم بأن ربهم مُحصٍ أعمالهم عليهم ومجازيهم عليها يوم القيامة فقال :

(وكفى به بذنوب عباده خبيرا) أى وحسبك بالحى الذى لايموت خبيرا بذنوب خلقه ما ظهر منها وما بطن ، فهو لايخفى عليه شىء منها وهو محصيها عليهم ومجازيهم عليها إن خيرا فخير وإن شرا فشر ، فلا عليك إن آمنوا أو كفروا .

وفى هذا سلوة لرسوله ووعيد لأولئك الكافرين على سوء أفعالهم وإعراضهم عن اتباع رسوله ومناصبته العداء وكأنه قيل إذا أقدمتم على مخالفة أمره كفاكم علمه فى مجازاتكم بما تستحقون من العقوبة .

ثم وصف نفسه بذكر أفعاله التى تجعله حقيقا أن يتوكل عليه فقال :

(الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش) تقدم إيضاح هذا فى سورة يونس وهود وطه ، ولكن يلاحظ هنا أنه تعالى وصف نفسه بالأبدية والعلم الشامل ثم بخلق السموات والأرض ليقرر وجوب التوكل عليه ويؤكده ، فإن من أحدث هذه الأجرام العظيمة على ذلك النمط البديع وجعلها مرفوعة بغير عمد فى تلك الأيام وقد كان قديرا على إبداعها دفعة واحدة بقدرته التى لاتقف على كنهها العقول ـ جدير بأن يتوكل عليه ويفوض الأمر إليه .

(الرحمن) أى عظيم الرحمة بكم والحدب عليكم ، فلا تعبدوا إلا هو ولا تتوكلوا إلا عليه .

وخلاصة ذلك — توكلوا على من لايموت وهو رب كل شىء وخالقه وخالق السموات السبع على ارتفاعها واتساعها وما فيها من عوالم لايعلم كنهها إلا هو ، وخالق

الأرضين السبع على ذلك الوضع البديع فى ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر ويقضى بالحق .

(فاسأل به خبيرا) أى فاسأل عن خلق ما ذكر خبيرا به يخبرك بحقيقته وهو الله سبحانه ، لأنه لايعلم تفاصيل تلك المخلوقات إلا هو ، فالأيام التى تم فيها الخلق إنما هى أطوار ستة سار عليها طورا بعد طور وحالا بعد أخرى كما يرشد إلى ذلك قوله : « وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ » والاستواء على العرش لايراد به الجلوس عليه بل تمام التصرف فيه .

فمن كان محدود الفكر فليقف عند ظاهر اللفظ ويترك البحث ، ومن كان حصيف الرأى طليق الفكر فليجدّ فى البحث والدرس وسؤال أهل الذكر من العلماء ليعلم المراد من ذلك على قدر ما تصل إليه طاقة البشر .

وبعد أن ذكر سبحانه إحسانه إليهم وإنعامه عليهم ذكر ما أبدوه من الكفر فى موضع الشكر فقال :

(وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن ؟) أى وإذا قيل لهؤلاء الذين يعبدون من دون الله ما لاينفعهم ولا يضرهم : اجعلوا خضوعكم وتعظيمكم للرحمن خالصا دون الآلهة والأوثان ، قالوا على طريق التجاهل : وما الرحمن ؟ أى نحن لانعرف الرحمن فنسجد له .

ونحو هذا قول فرعون : « وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ » حين قال له موسى عليه السلام : «إِنِّى رَسُولُ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ» وهو قد كان عليما به كما يؤذن بذلك قول موسى له : «لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ » .

ثم عجبوا أن يأمرهم بذلك وأنكروه عليه بقولهم :

(أنسجد لما تأمرنا ؟) أى أنسجد للذى تأمرنا بالسجود له من غير أن نعرفه.

ثم بين أنه كلما أمرهم بعبادته ازدادوا عنادا واستكبارا فقال :

(وزادهم نفورا) أى وزادهم هذا الأمر بالسجود نفورا و بعدا مما دعوا إليه ، وقد كان من حقه أن يكون باعثا لهم على القبول ثم الفعل .

وكان سفيان الثورى يقول فى هذه الآية : إلهى زدنى لك خضوعا ، ما زاد عداك نفوراً .

روى الضحاك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه سجدوا ، فلما رآهم المشركون يسجدون تباعدوا فى ناحية المسجد مستهزئين .

و بعد أن حكى عنهم مزيد النفرة من السجود له ، ذكر ما لو تفكروا فيه لعرفوا وجوب السجود لمن له تلك الخصائص فقال :

(تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا) أى تقدس ربنا الذى جعل فى السماء نجوما كبارا عدها المتقدمون نحو ألف وعدها علماء العصر الحاضر بعد كشف آلات الرصد الحديثة (التلسكوبات) أكثر من مائتى ألف ألف ، ولا يزال البحث يكشف كل حين منها جديدا ، وجعل فيها شمسا متوقدة وقمرا مضيئا .

ثم ذكر آية أخرى من آيات قدرته ودليلا على وحدانيته فقال :

(وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا) أى وهو الذى جعل الليل والنهار متعاقبين يخلف أحدهما الآخر ، فيكون فى ذلك عظة لمن أراد أن يتعظ باختلافهما و يتذكر آلاء الله فيهما و يتفكر فى صنعه ، أو أراد أن يشكر نعمة ربه ليجنى ثمار كل منهما ، إذ لو جعل أحدهما دائما لفاتت فوائد الآخر ، ولحصلت السآمة والملل ، وفتر العزم الذى يثيره دخول وقت الآخر ؛ إلى نحو أولئك من الحكم التى أحكمها العلى الكبير .

وفى الحديث الصحيح : « إن الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار ، و يبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل» .

وعن الحسن : من فاته عمل من التذكر والشكر بالنهار كان له فى الليل مستعتب ،

ومن فاته بالليل كان له فى النهار مستعتب . وروى أن عمر بن الخطاب أطال صلاة الضحى فقيل له : صنعت اليوم شيئا لم تكن تصنعه ! فقال : إنه بقى علىّ من وردى شىء فأحببت أن أتمه أو قال أقضيه وتلا هذه الآية : « وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ » الخ.

وَعِبَادُ الرَّحْمٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (٦٣) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦) وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا (٦٧) وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٧٠) وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (٧١) وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (٧٢) وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (٧٣) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (٧٤) أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا (٧٥) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٧٦) قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا (٧٧) .

شرح المفردات

الهون : الرفق واللين والمراد أنهم يمشون فى سكينة ووقار ولا يضربون بأقدامهم أشرا و بطرا ، الجاهلون : أى السفهاء ، سلاما : أى سلام توديع ومتاركة لا سلام تحية كقول إبراهيم لأبيه : « سَلَامٌ عَلَيْكَ » ويبيتون : أى يدركهم الليل ناموا أو لم يناموا كما يقال بات فلان قلقا ، غراما : أى هلاكا لازما ، قال الأعشى :

إن يعاقب يكن غراما و إن يعـــطِ جزيلا فإنه لايبالى

والإسراف : مجاوزة الحد فى النفقة بالنظر لنظرائه فى المال ، والتقتير : التضييق والشح ، قواما : أى وسطا وعدلا ، لايدعون : أى لايشركون ، والآثام : الإثم والمراد جزاؤه ، مهانا : أى ذليلا مستحقرا ، لايشهدون الزور : أى لايقيمون الشهادة الكاذبة والمراد أنهم لايساعدون أهل الباطل على باطلهم ، واللغو ما ينبغى أن يلغى و يطرح مما لاخير فيه ، كراما : أى مكرمين أنفسهم عن الخوض فيه ، والخرور : السقوط على غير نظام وترتيب ، وقرة العين : يراد بها الفرح والسرور ، والإمام : يستعمل للمفرد والجمع والمراد الثانى أى أئمة يقتدى بهم فى إقامة مراسم الدين ، والغرفة : كل بناء عال مرتفع و يراد بها الدرجات الرفيعة ، مايعبأ بكم : أى لايعتد بكم ، دعاؤكم : أى عبادتكم ، لزاما : أى لازما يحيق بكم حتى يكبكم فى النار .

المعنى الجملى

بعد أن وصف الكافرين بالإعراض عن عبادته والنفور من طاعته والسجود له عز اسمه ــ ذكر هنا أوصاف خلّص عباده المؤمنين ، و بين ما لهم من فاضل الصفات وكامل الأخلاق التى لأجلها استحقوا جزيل الثواب من ربهم وأكرم لأجلها مثواهم ؛ وقد عدّ من ذلك تسع صفات مما تشرئب إليها أعناق العاملين ، وتتطلع إليها نفوس الصالحين ، الذين يبتغون المثوبة ونيل النعيم كفاء ما اتصفوا من كريم الخلال ، وأتوْا به من جليل الأعمال .

الإيضاح

وصف الله سبحانه عباده المخلصين الذين استوجبوا المثوبة منه وجازاهم على ذلك الجزاء بصفات تسع :

(١) (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا) أى وعباد الله الذين حق لهم الجزاء والمثوبة من ربهم هم الذين يمشون فى سكينة ووقار ، لايضربون بأقدامهم كبرا ، ولا يخفقون بنعالهم أشرا و بطرا .

روى أن عمر رضى الله عنه رأى غلاما يتبختر فى مشيته فقال : إن البختنة مِشْية تكره إلا فى سبيل الله ، وقد مدح الله أقواما فقال : (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا) فاقصد فى مشيتك .

وقال ابن عباس : هم المؤمنون الذين يمشون علماء حلماء ذوى وقار وعفة .

وفى الحديث إن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « أيها الناس عليكم بالسكينة فإن البرّ ليس فى الإيضاع » (السير السريع) وفى صفته صلى الله عليه وسلم: إنه كان إذا زال زال تقلعا ، ويخطو تكفؤا ، ويمشى هونا ، ذريع المشية إذا مشى كأنما ينحط من صبب (التقلع : رفع الرجل بقوة ، والتكفؤ : الميل إلى سنن القصد ، والهون : الرفق والوقار ، والذريع : الواسع الخطا) أى إنه كان يرفع رجله بسرعة فى مشيه و يمد خطوه خلاف مشية المختال وكل ذلك برفق وتثبت دون عجلة ومن ثم قيل كأنما ينحط من صبب قاله القاضى عياض فى الشفاء .

وخلاصة هذا — إنهم لايتكبرون ولا يتجبرون ولا يريدون علوًا فى الأرض ولا فسادا .

(٢) (وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما) أى وإذا سفه عليهم السفهاء بالقول السىء لم يقابلوهم بمثله ، بل يعفون و يصفحون ولا يقولون إلا خيرا ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لاتزيده شدة الجاهل عليه إلا حلما .

وعن الحسن البصرى : هم حلماء لايجهلون ، و إن جُهل عليهم حلمُوا ولم يسفهوا هذا نهارهم فكيف ليلهم ؟ خير ليل ، صفّوا أقدامهم ، وأجْرَوا دموعهم ، يطلبون إلى الله جل ثناؤه فكاك رقابهم .

قال ابن العربى : لم يؤمر المسلمون يومئذ أن يسلموا على المشركين ولا نهوا عن ذلك ، بل أمروا بالصفح والهجر الجميل ، وقد كان عليه الصلاة والسلام يقف على أندية المشركين ويحييهم و يدانيهم ولا يداهنهم .

ولما ذكر تعالى ما بينهم و بين الخلق ذكر ما بينهم و بينه فقال :

(٣) (والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما) أى يبيتون ساجدين قائمين لربهم أى يحيون الليل كله أو بعضه بالصلاة ، وخص العبادة بالبيتوتة ، لأن العبادة بالليل أخلص وأبعد عن الرياء ، وقال ابن عباس : من صلى ركعتين أو أكثر بعد العشاء فقد بات لله ساجدا قائما . وقال الكلبى : من أقام ركعتين بعد المغرب وأربعا بعد العشاء فقد بات ساجدا قائما .

ونحو الآية قوله : « تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ » وقوله : « كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ . وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ » وقوله : « أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ » .

(٤) (والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم) أى والذين يدعون ربهم أن يصرف عنهم عذاب جهنم وشديد آلامها .

وفى هـذا مدح لهم ببيان أنهم مع حسن معاملتهم للخلق واجتهادهم فى عبادة الخالق وحده لاشريك له ، يخافون عذابه و يبتهلون إليه فى صرفه عنهم غير محتفلين بأعمالهم كما قال فى شأنهم : « وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ » .

ثم بين أن سبب سؤالهم ذلك لوجهين .

(١) (إن عذابها كان غراما) أى إن عذابها كان هلاكا دائما وخسرانا ملازما.

(ب) (إنها ساءت مستقرا ومقاما) أى إنها بئس المنزل مستقرا و بئس المقيل مقاما : أى إنهم يقولون ذلك عن علم ، و إذًا فهم أعرف بعظم قدر ما يطلبون ، فيكون ذلك أقرب إلى النجح .

قال الحسن : قد علموا أن كل غريم يفارق غريمه إلا غريم جهنم ، وقال محمد ابن كعب : طالبهم الله تعالى بثمن النعيم فى الدنيا فلم يأتوا به فأخذ ثمنه بإدخالهم النار .

(٥) (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما) أى والذين هم ليسوا بالمبذرين فى إنفاقهم فلا ينفقون فوق الحاجة ، ولا ببخلاء على أنفسهم وأهليهم فيقصرون فيما يجب نحوهم ، بل ينفقون عدلا وسطا ، وخير الأمور أوسطها ، وقد قيل :

ولا تَغْلُ فى شىء من الأمر واقتصد كلا طرَفَىْ قصد الأمور ذميم

وقيل :

إذا المرء أعطى نفسه كل ما اشتهت ولم ينهها تاقت إلى كل باطل
وساقت إليه الإثم والعار بالذى دعته إليه من حلاوة عاجل

قال يزيد بن أبى حبيب : أولئك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كانوا لا يأكلون طعاما للتنعم واللذة ، ولا يلبسون ثيابا للجمال ، ولكن كانوا يريدون من الطعام ما يسد عنهم الجوع ويقويهم على عبادة ربهم ، ومن اللباس ما يستر عوراتهم ويكفهم من الحر والبرد ، وقال عبد الملك بن مروان لعمر بن عبد العزيز حين زوّجه ابنته فاطمة ، ما نفقتك ؟ قال عمر : الحسنة بين سيئتين ؟ ثم تلا هذه الآية ، وقال لابنه عاصم : يا بنى كل فى نصف بطنك ، ولا تطرح ثوبا حتى تستخلقه ، ولا تكن من قوم يجعلون ما رزقهم الله فى بطونهم وعلى ظهورهم .

(٦) (والذين لا يدعون مع الله إلها آخر) أى والذين لا يعبدون مع الله إلها آخر فيشركون فى عبادتهم إياه بل يخلصون له العبادة ويفردونه بالطاعة .

(ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق) أى ولا يقتلونها بسبب من الأسباب إلا بسبب الحق المزيل لحرمتها وعصمتها، كالكفر بعد الإيمان ، والزنا بعد الإحصان ، وقتل النفس بغير حق .

(ولا يزنون) فيأتون ما حرم الله عليهم إتيانه من الفروج .

روى البخارى ومسلم والترمذى عن ابن مسعود قال : « سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى الذنب أكبر ؟ قال : أن تجعل لله ندّا وهو خلقك ، قلت ثم أىّ ؟ قال : أن تقتل ولدك خشية أن يَطْعَم معك ، قلت ثم أىّ ؟ قال أن تزانى حليلة جارك » فأنزل الله تصديق ذلك : (والذين لايدعون مع الله إلها آخر) الآية.

وقد نفى عنهم هذه القبائح مع أنه وصفهم بالصفات السالفة من حسن معاملتهم للناس ومزيد خوفهم من الله و إحياء الليل يقتضى نفيها عنهم ، تعريضا بما كان عليه أعداؤهم من قريش وغيرهم ، وتنبيها إلى الفرق بين سيرة المؤمنين وسيرة المشركين ، فكأنه قيل : وعباد الرحمن الذين لايدعون مع الله إلها آخر وأنتم تدعون ، ولايقتلون وأنتم تقتلون الموءودة ، ولا يزنون وأنتم تزنون .

روى مسلم عن ابن عباس : أن ناسا من أهل الشرك قتلوا فأكثروا ، وزنوا فأكثروا ، فأتوا محمدا صلى الله عليه وسلم فقالوا ، إن الذى تقول وتدعو إليه لحسن ، لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة ، فنزلت : (والذين لايدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما) ونزل : « قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا » الآية . وقد قال ابن عباس وسعيد بن جبير إن هذه نزلت فى وحشى قاتل حمزة .

ثم توعد سبحانه من يفعل مثل هذه الأفعال بشديد العقاب فقال :

(ومن يفعل ذلك يلق أثاما . يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا) أى ومن يفعل خصلة من خصال الفجور السالفة ، يلق فى الآخرة جزاء إثمه وذنبه

الذى ارتكبه ، بل سيضاعف له ربه العذاب يوم القيامة ويجعله خالدا أبدا فى النار مع المهانة والاحتقار ، فيجتمع له العذاب الجسمى والعذاب الروحى .

و بعد أن أتم تهديد الفجار على هـذه الأوزار أتبعه بترغيب الأبرار فى التوبة والرجوع إلى حظيرة المتقين فيفوزون بجنات النعيم فقال :

(إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما) أى لـكن من رجع عن هـذه الآثام مع إيمانه وعمله الصالحات فأولئك يمحو الله سوابق معاصيه بالتوبة و يثبت له لواحق طاعته .

قال الحسن : قال قوم هذا التبديل فى الآخرة وليس كذلك .

قال الزجاج : ليس يجعل مكان السيئة الحسنة ، ولـكن يجعل مكان السيئة التوبة ، والحسنة مع التوبة .

وروى أبو ذر عن النبى صلى الله عليه وسلم « إن السيئات تبدل بحسنات » ، وروى معاذ أنه صلى الله عليه وسلم قال : « أتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن » .

والخلاصة — إنه يعفو عن عقابه و يتفضل بثوابه ، والله واسع المغفرة لعباده ، فيثيب من أناب إليه بجزيل الثواب ، و يبعد عنه شديد العقاب .

(ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا) أى ومن تاب عن المعاصى التى فعلها وندم على ما فرط منه وزكى نفسه بصالح الأعمال ، فإنه يتوب إلى الله توبة نصوحا مقبولة لديه ماحية للعقاب محصلة لجزيل الثواب ، إلى أنه ينير قلبه بنور من عنده يهديه إلى سواء السبيل و يوفقه للخير ، و يبعده عن الضير .

وفى هذا تعميم لقبول التوبة من جميع المعاصى بعد أن ذكر قبولها من أمهاتها .

(٧) (والذين لا يشهدون الزور و إذا مروا باللغو مرّوا كراما) أى والذين لا يؤدون الشهادات الكاذبة ، ولا يساعدون أهل الباطل على باطلهم ، و يكرمون أنفسهم عن سماع اللغو وما لا خير فيـه كاللغو فى القرآن وشتم الرسول والخوض فيما

لاينبغى ، وكان عمر بن الخطاب يجلد شاهد الزور أربعين جلدة ، ويسخم وجهه ، (يطليه بمادة سوداء) ويحلق رأسه ويطوف به فى السوق .

ونحو الآية قوله : « وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ ، وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ، سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ » .

(٨) (والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا) أى والذين إذا ذكروا بها أكبّوا عليها سامعين بآذان واعية ، مبصرين بعيون راعية .

وفى هذا تعريض بما عليه الكفار والمنافقون الذين إذا سمعوا كلام الله لم يتأثروا به ولم يتحولوا عما كانوا عليه ، بل يستمرون على كفرهم وعصيانهم وجهلهم وضلالهم فكأنهم صمّ لايسمعون ، وعمى لايبصرون .

(٩) (والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما) أى والذين يسألون الله أن يخرج من أصلابهم من يطيعه ويعبده وحده لاشريك له ـ وصادق الإيمان إذا رأى أهله قد شاركوه فى الطاعة قرت بهم عينه وسر قلبه وتوقع نفعهم له فى الدنيا حيا وميتا ، وكانوا من اللاحقين به فى الآخرة ويسألون أيضا أن يجعلهم أئمة يقتدى بهم فى إقامة مراسم الدين بما يفيض عليهم من واسع العلم ، وبما يوفقهم إليه من صالح العمل .

روى مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : ولد صالح يدعو له ، وعلم يُنتفع به من بعده ، وصدقة جارية » .

والخلاصة — إنهم طلبوا من ربهم أمرين ـ أن يكون لهم من أزواجهم وذرياتهم من يعبده فتقر بهم أعينهم فى الدنيا والآخرة . وأن يكونوا هداة مهتدين دعاة إلى الخير آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر .

ولما بين سبحانه صفات المتقين المخلصين ذكر إحسانه إليهم بقوله :

(أولئك يجزون الغرفة بما صبروا و يلقون فيها تحية وسلاما) أى أولئك المتصفون بصفات الكمال الموسومون بفضائل الأخلاق والآداب يجزون المنازل الرفيعة والدرجات العالية بصبرهم على فعل الطاعات واجتنابهم للمنكرات ، ويُبتدرون فيها بالتحية والإكرام ، ويلقون التوقير والاحترام ، فلهم السلام وعليهم السلام .

ونحو الآية قوله : « وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ، سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ » .

ثم بين أن هذا النعيم دائم لهم لاينقطع فقال :

(خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما) أى مقيمين فيها لايظعنون ولا يموتون ، حسنت منظرا ، وطابت مقيلا ومنزلا .

ونحو الآية قوله : « وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ » .

ولما شرح صفات المتقين وأثنى عليهم أمر رسوله أن يقول لهم :

(قل ما يعبأ بكم ربى لولا دعاؤكم) أى قل لهؤلاء الذين أرسلتَ إليهم : إن الفائزين بتلك النعم الجليلة التى يتنافس فيها المتنافسون ، إنما نالوها بما ذكر من تلك المحاسن ، ولولاها لم يعتد بهم ربهم ، ومن ثم لايعبأ بكم إذا لم تعبدوه ، فما خلق الإنسان إلا ليعبد ربه ويطيعه وحده لاشريك له كما قال : « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ » .

(فقد كذبتم فسوف يكون لزاما) أى أما وقد خالفتم حكمى ، وعصيتم أمرى ، ولم تعملوا عمل أولئك الذين ذكروا من قبل وكذبتم رسولى ، فسوف يلزمكم أثر تكذيبهم ، وهو العقاب الذى لامناص منه ، فاستعدوا له ، وتهيئوا لذلك اليوم ، فكل آت قريب .

وخلاصة ذلك — لايعتد بكم ربى لولا عبادتكم إياه ، أما وقد قصر الكافرون منكم فى العبادة ، فسيكون تكذيبهم مقضيا لعذابهم وهلاكهم فى الدنيا والآخرة .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وصلّ ربنا على محمد وآله .

خلاصة ما اشتملت عليه السورة الكريمة من الأحكام

اشتملت هذه السورة على عدة مقاصد :

(١) إثبات النبوة والوحدانية ، والنعى على عبدة الأصنام والأوثان ، و إثبات البعث والنشور وجزاء المكذبين بذلك مع ذكر شبهاتهم التى قالوها فى النبى صلى الله عليه وسلم وفى القرآن ثم تفنيدها .

(٢) قصص بعض الأنبياء السالفين وتكذيب أممهم لهم ثم أخذهم أخذ عزيز مقتدر .

(٣) العجائب الكونية من مدّ الظل وجعل الليل لباسا وجعل النهار معاشا و إرسال الرياح مبشرات بالأمطار ومروج البحرين: العذب الفرات ، والملح الأجاج ، وجعل البروج فى السماء ، وجعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يتذكر أو أراد شكورا .

(٤) الأخلاق والآداب من قوله : وعباد الرحمن إلى آخر السورة .